

دمشق .. من لفستح وحتى لعصر العباسي

دراسة في العمران

د. نبيه عاقل

أود الاستفتاح بالقول بان هذه الصفحات محاولة لدراسة عمران دمشق ، وليس تاريخها السياسي أو العسكري أو الاقتصادي أو الاجتماعي ، ذلك أن هذه الأمور شرحها يطول وتقتصر عنه همة الفرد ، ثم أن يختصر تاريخ مدينة تفوص أقدامها عميقاً في تربة التاريخ وترتفع أجنحتها عالية حتى تطاول السماء في ساعة أو ساعات ، هو لعمرى من الأمور التي لا بد أن تغمط هذه المدينة حقها ، وتقدم عنها صورة ليس فيها الا الاطار وشيئاً قليلاً من ملامح . والاتحاد الموقر حين قرر أن يستوعب أخبار دمشق في مسيرتها منذ أن دبَّ انسان على أرضها وحتى يوم الناس هذا أو قبيله ، في ساعات معدودة ، قصد دونما شك أن يترك الباحث العرض الى الجوهر ، وأن ينتقي من هذا السفر الضخم صفحات قليلة رآها علامات بارزة وهامة على هذا الدرب الطويل من العطاء في كل مجال ومال .

ولئن كان نصيبي من هذه المهمة يبدأ مع دمشق بعد أن قامت للعرب دولة على أرض الجزيرة ورأت هذه الدولة أن الأهل في الشام أحق الناس بالتحريير من ربقة سيطرة غريبة على أرض هي استمرار لأرضهم ويقيم فيها أهل لهم تربطهم بهم وشائج القربى ويعيث فيها غريب فساداً وسلباً . والحديث عن فتح العرب لبلاد الشام بعامة ودمشق بخاصة قد يكون معاداً ومكروراً ، ولا مجال لتفصيله في هذه العجالة ، ولكن لا بد من وقفة هنا أو هناك عند بعض قضايا نجمت عنه أو أمور تعلقت به .

ولعل أول ما يجب أن يذكر في هذا المجال أن بلاد الشام قبل الفتح كانت في حال من الضعف والتفكك الشديدين بسبب ضعف الامبراطورية البيزنطية التي كانت تتولى مقاليد السلطة في هذه البلاد نتيجة حروبها مع فارس من جهة وبسبب أزمتها الداخلية من جهة أخرى . وكان الفساسنة الذين دخلوا في حلف مع بيزنطة فولاهم البيزنطيون مقاليد الأمور ، ولا سيما في الجنوب يعيشون مرحلة من الصراع الداخلي بين أمرائهم من جهة ، وبينهم وبين الدولة البيزنطية من جهة أخرى ، الأمر الذي خلّف الخراب والدمار ، وفقدان السلطة المحلية التي تمسك بزمام القبائل النازلة في الجنوب وتمنع ثوراتها ضد بيزنطة ، ورفضها دفع الضرائب أو الانضمام للجيش الامبراطوري . أما الحروب مع فارس فقد كانت مستمرة منذ القرن الخامس للميلاد ، الأمر الذي خرب الاقتصاد وفرّق الشمل وألحق الدمار بالبلاد والعباد . وكان من بين أهم أحداث هذه الحروب احتلال الكسري الفارسي خسرو الثاني لدمشق في العام ٦١٢ م . وإذا أضفنا الى ذلك كله أن معظم سكان دمشق كانوا يدينون بالمذهب اليعقوبي الذي يقول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح بخلاف بيزنطة الملكية ، لوجدنا ما يفسر حسن استقبال الدمشقيين للفرس وبالتالي حسن معاملة الفرس لهم ، بعكس ما سيحدث بعد سنتين أي في العام ٦١٤ م حين وصلت جيوش فارس الى القدس وأعملت فيها يد التخريب والنهب . وحين توفي الكسري الفارسي في العام ٦٢٧ م ، انسحبت الجيوش الفارسية من دمشق ، وعاد هيراكليوس الى سورية .

كان هذا يجري في الشام ودمشق في الوقت الذي كان فيه نور الاسلام ينتشر فوق ربى جزيرة العرب . وحقق الاسلام بقيادة محمد بن عبد الله نصراً مؤزراً على الكافرين والمنافقين وامتد بصر محمد ﷺ الى ما وراء الحدود بعد أن بايعته الجزيرة في عام الوفود ، فكانت مؤتة ثم كانت خلافة أبي بكر وحروب الردة وبعث أسامة بن زيد . وبعد أن استقرت الأمور في الداخل ، توجه المثني وخالد الى العراق ، ومن ثم ارتد خالد الى الشام ، وكانت بداية الفتح في العام ١٣ للهجرة . وليس يهمننا كما أسلفنا ، أن نعيد ما هو معروف ، وسنكتفي بالاشارة الى أن مسيرة المسلمين الى دمشق واجهت مقاومة بيزنطية شديدة عند مرج الصفر شمال الصنمين وذلك في المحرم من العام ١٤ هـ ، ولكنهم لم يلبثوا أن ولوا الأدبار باتجاه

دمشق ، فلاحقتهم الجيوش الاسلامية حتى أبواب دمشق حيث أقام خالد قيادته في الشمال الشرقي من المدينة . وقصد خالد من حصاره للمدينة من جهة الشمال قطع الطريق على أي نجدة بيزنطية قد تتسرب من هذه الجهة . و يبدو أن الود كان مفقوداً بين دمشق والسلطة البيزنطية ، الأمر الذي حدا ببعض وجهائها وعلى رأسهم بطريركها والمسؤول المالي فيها وهو منصور بن سرجون ، والد يوحنا الدمشقي وسواهما ، للدخول في مفاوضات مع الجيش العربي لتسليم المدينة وتجنب السكان المعاناة المتوقعة إذا ما أحكم عليها الحصار . وفي رجب من عام ١٤ للهجرة فتح الباب الشرقي للجيش العربي المسلم وانسحب الجيش البيزنطي من المدينة باتجاه الشمال . ولست هنا في مجال الحديث عن الروايات العديدة التي تتحدث عن فتح العرب لدمشق أو مناقشتها وتفضيل بعضها على بعضها الآخر ، ولكن الرواية الأكثر شيوعاً وقبولاً عند العديدين هي الرواية التي يعتمد عليها ابن عساكر والتي تقول أن فتح دمشق تم على يد خالد بن الوليد من جهة باب شرقي عنوة ، وعلى يد أبي عبيدة بن الجراح الذي دخل المدينة مسلماً من جهة باب الجابية بعد أن أعطى الناس الأمان ، والتقى القائدان الفاتحان وسط كنيسة المدينة . أما البلاذري صاحب فتوح البلدان ، فيقول أن المدينة استسلمت لخالد عند باب شرقي دونما قتال ، وإن أبا عبيدة دخلها عنوة من جهة باب الجابية ، وأن القائدتين التقيا عند البريص ، في وسط الشارع المستقيم قرب كنيسة المقدسلاط . وهناك نقاش طويل بين بعض الباحثين : عرباً وأجانب ، حول موضوع فتح دمشق ولا سيما قضية اقتسامها ، لما لهذا الأمر من صلة بموضوع بناء المسجد فيما بعد ، مما لا نرى ضرورة للدخول في تفصيلاته . والمهم في الأمر أن المسلمين ضمنوا للمسيحيين حقهم بالاحتفاظ بأرضهم ومساكنهم وكنائسهم وسوى ذلك من ممتلكات على أن يدفعوا الجزية وسواها من الضرائب المقررة .

وفي ربيع عام ١٥ هـ / ٦٣٦ م قامت قوة يرأسها ثيودوروس ، شقيق الامبراطور هيراكليوس ، بالتوجه نحو دمشق لاستردادها من العرب المسلمين ، فقام خالد بن الوليد بسحب جيوشه الى موقع الجابية ومن ثم الى اليرموك شرق بحيرة طبريا . وفي اليرموك جرت المعركة التي حسمت مصير دمشق ، إذ استطاع خالد أن يهزم تجمع الجيوش الرومية وذلك يوم ١٢ رجب سنة ١٥ للهجرة الموافق

ل ٢٠ آب سنة ٦٣٦ للميلاد ، وما لبث خالد بعد ذلك أن استدعى للمدينة وألت مقاليد أمور دمشق الى القائد الكبير أبي عبيدة بن الجراح . وخضعت المدينة مرة ثانية وأخيرة للحكم العربي الاسلامي وذلك في شهر ذي القعدة من عام ١٥ للهجرة الموافق لشهر كانون الأول من عام ٦٣٦ للميلاد .

كان دخول دمشق في ظل الحكم العربي حادثاً متميزاً ، اذ انه يضع حداً للتسلط الغربي عليها الذي دام لما يقارب الألف عام ، فعادت هذه المدينة الى اطارها المشرقي واستأنفت دوراتها في هذا الفلك مع بقية اشقائها الذين كانوا مثلها ، يتحدثون لغة سامية ويولون وجوههم شطر المشرق وحضارته وثقافته وديانته التي تقول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، في مقابل الأرثوذكسية البيزنطية ولغتها اليونانية . لذا استقبلت الفاتحين العرب ، أبناء العمومة بترحاب كبير لما بينهم من روابط اللغة والارث الحضاري المشترك والفهم المتقارب للدين .

وقد ظن البعض أن القلة الفاتحة التي دخلت دمشق ستذوب في الغالبية المقيمة المفتوحة وأن العرب سيفقدون رافداً صغيراً من روافد الخليط الحضاري لهذه المدينة . ولكن الأمر لم يكن كذلك، إذ أن سكان دمشق زمن الفتح لم يتكلموا اللغة اليونانية ، لغة بيزنطة ، بل تكلموا الآرامية ، وهي كالعربية فرع من الشجرة اللغوية السامية ، كما أنهم لم يقبلوا مذهب القسطنطينية في طبيعة السيد المسيح . وقد أدى ذلك كله الى شعور الدمشقيين بالقرب من أولاد العمومة القادمين من شبه الجزيرة ، ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى أخذت اللغة العربية تطغى على اللغة المحلية ، وحتى بدأ الطابع العربي يسود الحياة في مختلف مسالكها . وعين الخليفة عمر بن الخطاب أحد قادة الفتح ، وهو يزيد بن أبي سفيان ، والياً على دمشق ، وأخذ الأشراف العرب يتوافدون على هذا المصر الجديد ، وأقاموا في البيوت التي هجرها أصحابها المحليون ابان عمليات الفتح . وقد أعجب الفاتحون بهذا البلد حتى أسموه « شامة الدنيا » . ولكن عدم توفر الأرض التي تصلح كمراععي لمواشيهم جعلتهم يسكنون الجابية . وبسرعة فائقة أخذت دمشق ترتدي طابعاً مقدساً وأخذ اسمها وبعض المواقع فيها ترتبط بالأنبياء والرسل وغدا الحج إليها ظاهرة شائعة ، وبخاصة الى جبل قاسيون ومغارة آدم ومغارة الدم حيث قتل هابيل بيد أخيه قابيل ، والى برزة حيث يوجد مكان مولد سيدنا ابراهيم ، والى القدم حيث يقع قبر موسى بن عمران . .

وأما سيدنا عيسى بن مريم فقد أوجدوا له أيضاً صلة بدمشق إذ فسروا قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » (سورة المؤمنون ، الآية ٥٠) ، بقولهم أن الربوة الواردة في الآية الكريمة هي ربوة دمشق . ويكملون هذه الرواية بدعواهم أن سيدنا عيسى سينزل في آخر الزمن فوق المئذنة البيضاء التي هي مئذنة باب شرقي ، عند البعض ، أو المئذنة الشرقية المعروفة بمئذنة عيسى ، عند البعض الآخر ، ليحارب المسيح الدجال ، ولست أجد خيراً من ابن عساكر لأنقل عنه هذا الخبر يقول ابن عساكر في : تاريخ مدينة دمشق ، المجلدة الثانية - القسم الأول ، المختص بخطط دمشق - والذي حققه صلاح الدين المنجد ما نصه : « ٠٠٠٠ عن ابن عباس قال : من أراد أن يرى الموضع الذي قال الله عز وجل : « ٠٠٠٠ وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين ٠٠٠ » فليأت النيرب الأعلى بدمشق بين النهرين ، وليصعد الى الغار في جبل قاسيون فليصل فيه فانه بيت عيسى وأمه . وهو كان معقلهم من اليهود ، ومن أراد أن ينظر الى ارم فليأت نهراً في حوض دمشق يقال له بردا ، ومن أراد أن ينظر الى المقبرة التي فيها مريم بنت عمران والحواريون فليأت مقبرة الفراديس ، وهي مقبرة دمشق ، فيها قبور جماعة من الصحابة والأخيار » . (ص ١٩٠) .

وإذا كانت فترة خلافة الراشدين قد شغلت بأحداث كالردة وبدايات الفتح ومقتل عثمان وعلي والصراع على السلطة وسوى ذلك من أمور لم تتح للتطور العمراني والحضاري بأن يأخذ مداه ، فان انتقال السلطة الى بني أمية ونقلهم العاصمة الى دمشق كانت بداية العصر الذهبي لهذه المدينة الذي شهد تحولات كبيرة ورائعة في جميع مجالات الحياة من عمران وسياسة واقتصاد واجتماع . وقد بدا كل ذلك أثر وفاة يزيد بن أبي سفيان وتولية أخيه معاوية مقاليد ولاية دمشق ، ومن ثم حين آلت اليه الخلافة بعد صفين والتحكيم والاغتيال الغادر لرابع الخلفاء الراشدين : علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه .

مع معاوية يبدأ نجم دمشق بالصعود اذ انه سكنها منذ ان كان والياً وأولاه اهتماماً غدت معه حاضرة الخلافة وقبله الانتظار لمدة تزيد على القرن من الزمن . ومع ان العرب لم يشكلوا غالبية سكانها أول الأمر ، فان عملية تعرب السكان الأصليين بدأت منذ الأيام الأولى للفتح رغم سيطرة عدد منهم على بعض المراكز الادارية الهامة في الدولة . ولم تات خلافة عبدالملك بن مروان حتى غدا التعريب حقيقة واضحة للدرجة انه أمر بتعريب دواوين الدولة في دمشق وسواها من حواضر

الدولة ، الأمر الذي يوضح مدى تمكن العربية ورسوخها كلفة تعامل ولغة ادارة . وقد اتصفت الأيام الأولى للدولة بني أمية بجدية الحكم وحرصهم الشديد على تثبيت دعائم الدولة وعملهم الدائب على الارتقاء بها لتكون في مصاف خصومها ، لا بل لتتفوق عليهم في كل مجال بما في ذلك مجال الانجازات الحضارية والفكرية . ولعل أبرز ما تم انجازه في مجال العمران : الصرحان الكبيران : قصر الإمارة ، والمسجد الكبير ، اللذين سنتحدث عنهما بعد قليل ، اذ اننا لا بد ، في سبيل فهم افضل للوضع العمراني للمدينة ، من أن نقف عند بعض مظاهر العمران في دمشق قبل الفتح العربي لها ...

فقد أدى الازدهار الاقتصادي الذي كانت تنعم به دمشق أيام بيعتها لبيزنطة الى مضاعفة عدد سكانها واحداث حركة عمرانية نشطة ، فتوسعت المدينة ، وأحدث فيها تنظيم عمراني جديد يحقق المفاهيم الجديدة في تنظيم المدن وتحسينها ، فقد أحيطت دمشق بسور واسع مستطيل بني بأحجار ضخمة ، احتتمى وراء وادي بردى في ناحية الشمال ، وزود بسبعة أبواب : أحدها في الشرق (باب شرقي) وآخر في الغرب (باب الجابية) واثنان في الجنوب (باب كيسان والباب الصغير) وثلاثة في الشمال هي باب توما وباب الجنين (الذي كان بالقرب من باب السلام) وباب الفراديس . وشق في المدينة شارع رئيسي عريض يمتد من الغرب الى الشرق وينحضر بين باب الجابية وباب شرقي ، وعرف باسم الشارع المستقيم وكان طوله ١٥٠٠ م ، ويتألف من طريق واسع في الوسط ورواقين جانبيين مسقوفين تحملهما أعمدة كورنثية ، ما يزال بعضها مطموراً وظهر بعضها الآخر أو أجزاء منه أثناء أعمال الحفر والبناء في موقع هذا الشارع . الذي كانت تزيينه التماثيل ، وقد أدرك العرب أحدها وكان يتوسط الشارع وهو عبارة عن عمود عليه تمثال رجل باسط ذراعيه وآخر على رأسه مثل الكرة فيها حديد ، كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية (ج ١٤ ، ص ٢١٧) وكانت تقطع هذا الشارع أقواس النصر ، وقد ظهر أحدها منذ أعوام قليلة ، وقامت مديرية الآثار بترميمه عام ١٩٥٠ . ويعتقد بأن هذا القوس هو الذي أشار اليه ابن عساكر باسم قنطرة سنان .

على ان الأبدلة الهامة التي خلفها العصر البيزنطي في دمشق هي معبد جوبيتر الذي عرّفه العرب وأطلقوا عليه اسم حصن دمشق . وقد بني هذا المعبد على أنقاض المعبد الآرامي ، وتحول فيما بعد الى كنيسة القديس

يوحنا وذلك في آخر القرن الرابع ، وقد أحدثت أسواق ذات أروقة تصل بين أبواب
المعبد الداخلي وبين أسواره الخارجية ، يشاهد جانب منها عند البابين الشمالي
والغربي للجامع الأموي . وظلت الأروقة ذات الأعمدة في الناحية الجنوبية الممتدة
من باب الزيادة في الجامع الأموي باتجاه الجنوب باقية حتى القرن التاسع عشر ،
إذ شاهدها السائح الانكليزي بورتري في عام ١٨٥٥ م ، وعدّ منها اثني عشر
عموداً ، فقدت جميعها فيما بعد .

كما ظهرت في العصر البيزنطي الكنائس والأديرة كمنشآت عمرانية
جديدة ، شيد منها حوالي خمس عشرة كنيسة داخل الأسوار وخارجها . وأما
الأديرة فقد كانت عديدة في أطراف المدينة وضواحيها ، واشتهر من بينها دير
مرّان في سفح قاسيون الغربي ، قريباً من الربوة . وتذكر الروايات أن الوليد
توفي في موقع قرب دير مرّان .

ومن المؤكد وجود قصور وجواسق على سفح قاسيون ، أحدهما كان للحاكم
البيزنطي . وتذكر المصادر العربية قصراً في قاسيون يسمى بقصر هرقل ، أصبح
يدعى في العهد السلجوقي بقصر شمس الملوك ، نزل صلاح الدين الأيوبي في
القرن الثاني عشر .

وكان للفساسنة قصر في قلب دمشق يدعى البريص كان يؤمه زعماء العرب
وينزلون فيه ضيوفاً على أمراء الفساسنة ، وهو الذي يقول فيه حسان بن ثابت :

لله در عصابة نادمهم يوماً يجلق في الزمال الأول

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

والمعروف أن « جلق » لقب من ألقاب دمشق . وقد أكد البلاذري بأن موقع
هذا القصر كان عند المقسلاط ، أي في وسط الشارع المستقيم .

بعد هذا العرض السريع لبعض مظاهر العمران في دمشق قبل الفتح ، نعود
لنقول أنه منذ السنوات الأولى لهذا الفتح أخذت دمشق تتحول تدريجياً إلى
مدينة عربية مسلمة . وحل الأمراء العرب وكبرائهم في الدور والقصور التي
أخلاها أصحابها البيزنطيون من حكام وقواد . وبذلك توزع المسلمون في جميع
أنحاء المدينة ، ولم يكن لهم آنذاك أحياء خاصة بهم وأخرى خاصة بالمسيحيين ،
كما سيحدث فيما بعد .

ودليلنا على ذلك أن ابن عساكر يعدد دوراً للصحابة كانت في محلتي باب توما وباب شرقي وهما من الأحياء المسيحية التقليدية . كما شارك المسلمون المسيحيين في المعبد القديم ، فأصبح يضم كنيسة للنصارى في الجانب الغربي ومسجداً للمسلمين في الجانب الشرقي ، وأقيمت طقوس العبادتين في بناء واحد . وظلت هذه الحال من الجوار بين العبادتين أكثر من نصف قرن الى أن شرع الخليفة الوليد بن عبد الملك في تحقيق مشروعه المعماري الضخم وبنى المسجد الأموي الذي سنتحدث عنه بعد قليل .

وإذا عدنا إلى ما ذكرناه آنفاً عن الصرحين الكبيرين اللذين يقعان على رأس قائمة المنجزات العمرانية زمن خلافة بني أمية لوجب أن نذكر أن معاوية اتخذ أول الأمر مقرار إقامة الحاكم البيزنطي مقرأله ، واكتفى باصلاح ما تهدم منه . ثم ما لبث بعد ذلك أن طوره وأضاف عليه المباني اللازمة للإدارة وشؤون الحكم ، وهكذا أصبح المكان يعرف بدار الامارة أو قصر الخضراء نسبة الى القبة الخضراء ، وموقعه قرب ما يعرف اليوم بسوق الصاغة في الجنوب الشرقي من الساحة التي كان يقوم عليها المعبد الذي سيغدو فيما بعد المسجد الأموي . وكانت الى جوار الجدار الجنوبي للجامع ويتصل به بباب خاص . ويذكر ابن عساكر (المجلد الثاني - ص ١٣٣) أنه « لما بنى معاوية الخضراء بدمشق ، وهي دار الامارة ، بناها بالطوب ، فلما فرغ منها قدم عليه رسول ملك الروم ، فنظر اليها ، فقال له معاوية : كيف ترى هذا البنيان ؟

قال : أما أعلاه فللعاصفير ، وأما أسفله فللفأر . قال فنقضها معاوية وبناها بالحجارة . وتذكر الروايات الى أنه كان في القصر جناحاً خاصاً بأهل الخليفة ، وجناحاً آخر يستقبل فيه رجال الدولة ، ويتناول فيه طعامه ، ويخرج منه للصلاة في الجامع . وتحولت بعد ذلك الى دار للملك يقطنها من يتولى الخلافة من بني أمية . ثم حين قامت الثورة العباسية على بني أمية تهدمت هذه الدار ، وأصبح مكانها داراً للشرطة ولضرب النقود . ثم أتى عليها حريق عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م مع الجامع الأموي ، فزالت أثارها نهائياً ، وحل مكانها منذ العام ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م وحتى اليوم سوق للصاغة . وجدير بالذكر أنه كان الى جانب قصر الخضراء دار عرفت باسم دار الخيل وكانت نوعاً من دار الضيافة لاقامة المبعوثين الأجانب الذين يفدون لمقابلة الخليفة .

ومن جملة الدور الشهيرة التي بناها رجالات الدولة في دمشق ، دار عبد العزيز بن مروان وابنه الخليفة عمر ، وكانت تقع بجانب جدار الجامع الشمالي مكان المدرسة الشميساطية اليوم .

ونعرف قصرأ كان لهشام بن عبد الملك في مكان المدرسة المجاهدية داخل باب الحرير أي في سوق القلبجية ، وقصورأ أخرى بنيت خارج السور ، أحدها ينسب الى الحجاج بن عبد الملك وقد أطلق اسمه على الحي الذي حول القصر بعد ذلك . وقصر عاتكة بالقرب منه ، ويسمى اليوم حي من أحياء دمشق باسم قبر عاتكة وصحيحه قصر عاتكة .

وقد اندثرت كل هذه القصور ولا نعرف عنها شيئاً ، بخلاف قصورهم العديدة خارج العاصمة ولا سيما قصور الصحراء وقصور فلسطين ، وأغلبها يعتبر مثالا رائعا على الفن المعماري الأموي مما لا نجد ضرورة للحديث عنه . واليقين أن مدينة دمشق في العصر الأموي كنات ترفل بأبدع حلة إذ أن في مصادرها الكثير عن متنزهاتها ومغانيها ودورها الفارحة وساحاتها العامة ، فضلا عن حماماتها وفنادقها ومشافيتها وسوى ذلك .

وقد أدى الدور المتعظم لدمشق كحاضرة للخلافة الى اتساعها وامتداد المساكن خارج السور ، فنشأت في أطراف المدينة وضواحيها مراكز سكنية عرفت بمنازل القبائل . وامتد البناء على ضفاف بردى وسفوح قاسيون وظهرت الجواسق والطوارم (ج . طارمة وهي البناء المستدير المشرف) وشق يزيد بن معاوية النهر الذي عرف باسمه ، فساعد ذلك على امتداد الخصرة والعمران الى أعالي السفح ، فضلا عن احياء عدد من القرى في الشمال من دمشق . وقد تخربت هذه المنازل والاربابض في الفتن والحروب التي تلت العهد الأموي .

وكان في المدينة ميدانان عامان (هيبودروم) أحدهما في الجنوب وهو ميدان المحصى ، والآخر في الغرب ويعرف بالمرج الأخضر (مدينة معرض دمشق الدولي الحالية) حيث كانت تقام سباقات الخيل التي أولع بها الأمويون ولا سيما الخليفة عبد الملك وابنه الوليد ، ولعل خير شاهد على هذه المغاني والرياض ما نراه في فسيفساء الجامع الأموي الذي لا أظن أحدا لم ينعم برؤياه .

أما الصرح الثاني الذي أشرنا إليه ، فهو المسجد الأموي . ولست أريد في هذه العجالة أن ادخل في تفاصيل النقاش العقيم حول ملكية المكان ما ورد في معاهدة الصلح ، وهل اشترت الأرض من أصحابها أم هل استبدلت كنيسة بكنايس ، وهل كان ذلك طوعاً أم قسراً ، ففي ذلك حديث يطول ، ويصعب الخروج منه برأي قاطع . المهم أن المسجد بني ، وأنه كان درة في جبين الدولة الأموية ما زال بريقها يتلألأ حتى يوم الناس هذا ، حين تصدى السيد الرئيس لواقعه الذي يتهده الخطر ، وأمر ألا يدخر جهد حتى يعود هذا الصرح لسابق عهده ، وأدعو الله أن يوفي المسؤولين الأمانة ويكونوا على قدر المسؤولية أمام التاريخ وأمام من عهد اليهم بها .

وقبل أن أدخل في حديث مقتضب حول المسجد أود أن أقف وقفة قصيرة مع ملامح الفن العربي الذي أخذت معالمه تتشكل مع اطلالة فجر دولة بني أمية . وأود أن أقول بأمانة أن الملامح الأولى والأساسية لهذا الفن ولدت في دمشق حتى غدت هناك مدرسة فنية عالمية هي مدرسة الفن العربي الاسلامي ، وأقول عالمية لأن ملامحها انتشرت خلال اثني عشر قرناً على بلاد تمتد من الصين الى المحيط الأطلسي ، وكانت بداياتها مع العرب الامويين ثم تطورت تبعاً للعصور والمؤثرات المحلية والمستوردة .

ولست أشك بأن هذا الفن هو ثمرة مشتركة بين الاسلام كدين ومعتقدات ومواقف من الحياة وشؤونها وما هو محرم وما هو محلل وبين الفتح وما أدى اليه من انضمام حضارات وثقافات لها تاريخها وتقاليدها ومنجزاتها الفنية الى الاسلام ، فتقيدت به واحترمت أوامره ونواهيه ومزجت كل ذلك مع الموروث العربي في بوتقة واحدة لتخرج فناً متميزاً ما زلنا نتفياً ظلالة حتى اليوم وعلى طول هذه البقعة الواسعة من الأرض . وبكلمات قليلة أن ما نسميه بالفن العربي هو نتيجة تمازج عقائد الاسلام ، وفنون العرب ، بفنون فارس وبيزنطة وقبلها اليونان والرومان والذي جعل مؤرخي الفن يقررون وحدة الفن في العالم الاسلامي ، هو ما وجدوه من صفات مشتركة وخصائص متشابهة بين فنون هذه الأمم التي دخلت في الاسلام وتبنت معتقداته . ثم ان بلاد الشام بخاصة كانت المعبر الدائم لمختلف الحضارات العالمية والبوتقة التي انصهرت فيها وتمازجت لتخرج فناً فيه من الملامح العالمية ، ومن الخصائص المحلية آنذاك ما يجعله فناً فريداً لا أجد مثالا له خيراً من مثال تدمر حيث تلاقت حضارات العالم القديم لتنتج روائع تدمر .

ولن أطيل فقد شهدت دمشق مولد هذا الفن العربي الاسلامي على يد
الأمويين ، وكانت أولى ثماره الجامع الأموي الذي بناه الوليد بن عبد الملك
وغدا الدرة الثمينة في التاج الأموي .

واذا رجعنا الى البدايات لوجدنا ان المسلمين بعد الفتح شاركوا المسيحيين في
المعبد القديم الذي غدا يضم كنيسة للنصارى في جانبه الغربي ، ومسجداً
للمسلمين في جانبه الشرقي ، كما سلف وأشرنا الى ذلك . وظلت هذه الحال من
الجوار بين العبادتين ما يزيد على النصف قرن وكانت كنيسة القديس يوحنا زمن
معاوية تنعم باستقلالها عن المسجد المجاور ويؤيد هذا الزعم ما يذكره كاتب مادة
« دمشق » في الطبعة الجديدة من الموسوعة الاسلامية من أن القس الغالي أركولف
مر بدمشق سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م فوجد أن هناك معبدين منفصلين يمارس في
إحدهما العبادة الاسلامية وفي الثاني العبادة المسيحية . ومن أجل المناسبات
التي تقتضي تجمع المسلمين أقام الأمويون الأول ما أسموه مصلى العيد، وفق تقاليد
السنة ، خارج المدينة ويوجد في محلة الميدان اليوم جامع يدعى جامع المصلى ،
وهو مصلى العيد الأموي . ولما بنى قصر الخضراء وشيدت القصور والمؤسسات
الحكومية في الساحة الواسعة المحيطة بالمعبد القديم ، بدا انه لا بد من توسعة
المسجد القديم ليتناسب مع حاجات الدولة المتنامية . وكان هذا ما فعله الوليد عندما
شرع ببناء المسجد الأموي .

وكما أشرت في مطلع هذا الحديث ، وبعيداً عن النقاش حول الأسلوب الذي
تم فيه استحواذ الأرض التي بنى عليها المسجد ، لأنه نقاش عقيم لا يثبت حقاً
ولا يمحو باطلاً ، ولكل رأي أو ادعاء ما يؤيده أو يناقضه ، وتظل الحقيقة
محجوبة بستار داكن من سنين طويلة وأهواء متناقضة ومواقف تنبع عن
عصبية وآراء ليس لها ما يثبتها أو ينقضها ، أقول بعيداً عن هذا النقاش
الذي لخصه لنا اليسييف بدقة وموضوعية فيما كتبه عن « دمشق » في الطبعة الجديدة
من الموسوعة الاسلامية ، فإن الوليد أمر في العام ٨٦ هـ / ٧٠٥ م . بهدم كل
ما كان موجوداً داخل ساحة المعبد القديم ، وكنيسة القديس يوحنا وبدأ بأشادة
المسجد الكبير . ولن أدخل في وصف مفصل للمسجد ويكفي القول أنه مستطيل الشكل
طوله ١٥٧ متراً وعرضه ٩٧ م ، ويحتل قسمه الشمالي صحن مكشوف تتوزع فيه

قبتان جميلتا العمدة والتيجان ، وبركة يحفّ بها من الجانبين عمودان ، كانا يسرجان في العهود الماضية لآنارة الصحن . ويؤدي الى الصحن ثلاثة أبواب ، ويحيط بالصحن من الداخل رواق مسقوف قائم على عمد وعضائد تحمل طبقتين من العقود الكبيرة والصغيرة مفتوحة الى الصحن . ويحتل المصلى (الحرم) الطرف الجنوبي ، وهو قاعة مستطيلة مؤلفة من ثلاثة أروقة (بلاطات) تمتد من الشرق الى الغرب وينتظمها صفان من الأعمدة عليها طبقتان من العقود تحمل السقف . ويقطع الأروقة الثلاثة هذه من الشمال الى الجنوب رواق مرتفع يحمل في وسطه قبة النسر الشامخة . وقد أطلق العرب على المصلى اسم النسر : القبة رأسه ، والرواق القاطع جسمه ، والأروقة عن يمين وشمال جناحاه . وفي جدار المصلى الجنوبي باب يصل الجامع بالمدينة . وكان في هذا الجدار باب آخر ذو فتحات يصل الجامع بقصر الخضراء . قصر معاوية ومن تلاه من خلفاء بني أمية . ويسترعي الانتباه في هذا المصلى بناء صغير أنيق قائم بين أعمدة الرواق الأوسط ، وهو ضريح النبي يحيى . وعند ابن عساكر (المجلد الثانية - القسم الأول - خطط دمشق ، ت المنجد ، ص ٩ وما بعدها) العديد من الروايات حول رأس سيدنا يحيى ، وسأقتبس فيما يلي أحداها : « . . . عن زيد بن واقد ، قال : وكلني الوليد على العمال في بناء جامع دمشق . فوجدنا فيه مغارة . فعرّفنا الوليد بذلك ، فلما كان الليل وافى وبين يديه الشمع . فنزل ، فاذا هي كنيسة لطيفة ، ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع ، واذا فيها صندوق . ففتح الصندوق ، فاذا فيه سفظ ، وفي السفظ رأس يحيى بن زكريا عليه السلام ، مكتوب عليه : هذا رأس يحيى بن زكريا . فأمر به الوليد فردّ الى مكان ، وقال : اجعلوا العمود الذي فوقه مغيراً من الأعمدة ، فجعل عليه عمود مسبك مسقط الرأس . » .

ونميز على مخطط الجامع ثلاثة أبراج شاهقة هي منائر الأذان ، وقد بنيت كلها في عهد الوليد ، وجدت أقسامها العليا في العصور التالية : الأولى وتتوسط الجدار الشمالي وهي معروفة بمئذنة العروس ، والمئذنتان الأخرى بنيتا في زاويتي المصلى ، الشرقية والغربية ، وقد عرفت المئذنة الشرقية بمئذنة عيسى .

وقد سخا الوليد في الانفاق على البناء وجلّله بكل أنواع الزخرفة مما لا مجال للدخول في تفصيله . ويكفي أن نشير الى أن وفداً بيزنطياً حضر خصيصاً من القسطنطينية لمشاهدته حين سمع به . وقد بلغ من دهشة الوفد أن صرح رئيسه بما معناه : اننا وقد شاهدنا هذا البنيان الرائع لموقنون بأن العرب باقون في هذه البلاد الى الأبد ، وأنه لا رجعة لبيزنطة اليها بعد اليوم . وهكذا كان

كما يعزى للفترة الأموية اقامة مقبرتين اسلاميتين جديدتين الى جانب مقبرة باب الفراديس : الأولى أقيمت قرب باب توما ، أما الثانية وهي الأهم لأنها وارت جثمان أكثر من رجل من صحابة رسول الله ، وهي مقبرة باب الصغير ، جنوب المدينة .

وقبل أن أختتم الحديث عن دمشق نيزمن بني أمية يطيب لي أن أنقل اليكم بعض ما ذكره لنا ابن عساكر في تاريخه عن هذه المدينة :

اقرأ من ص : ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ ، ص ٥٣ ، ٧٧٨ ، ٨١ - ٨٢ ، ٨٩ : ٩٩
١٠٠ - ١٠٢ ، ١١٠ ، ١٢٧ ، ١٢٩ .

وهناك أشياء كثيرة أخرى عن الأنهار والسواقي والقنى (جمع قناة) والحمامات وعددها ٥٧ حماماً . . .

هكذا كانت دمشق زمن بني أمية الذين جعلوها حاضرة الخلافة وجملوها بما يليق بحاضرة امبراطورية عظمت تنافس بيزنطة على سيادة العالم . ولما آل الأمر الى بني العباس ، بعد خصومة مسلحة مع بني أمية ، كان طبيعياً أن تتراجع مكانة هذه المدينة وأن تغدو مدينة ثانوية في اطار الامبراطورية الجديدة التي غدت حاضرتها الكوفة أول الأمر ، ومن ثم بنت حاضرتها الجديدة : بغداد ، وعملت على أن تكون قبلة الأنظار في كل المجالات .

ولا نجد في مصادرنا حديثاً مطولاً عن دمشق في ظل بني العباس ، فما عدا ما نقرأه من نبشهم القبور الأموية والتمثيل بالبحث وسوى ذلك من فظائع ، تعيش دمشق في عزلة عن الأحداث إلا من ثورة تقوم بها بين حين وآخر ، فتسمع بها الدولة وترسل من يؤدب العصاة . وما ان يأتي القرن الثالث للهجرة حتى يخيم الظلام على المدينة لبضعة قرون قطعتها زيارة بعض الخلفاء العباسيين لها

فاستطاب بعضهم هواءها وفواكهها ، وود لو أنه أقام فيها ، وكره آخرون الإقامة بها ، وبين هذا وذاك كانت المدينة نهباً للطامعين والحكام الاقطاعيين ، ثم غدت تابعة لمصر زمن الطولونيين والفاطميين ، وكانت سنواتها في غالبها سنوات صراع على السلطة بين قوى قادمة من بغداد أو مصر ، أو بين قوى محلية . وقد عبر المؤرخ ابن الجوزي عن حالها هذا بشيء من المبالغة وذلك أثناء حديثه عن العام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م وهي السنة التي انتهت فيها الحكم الفاطمي فيقول : « . . . ولم يبق من أهلها سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد خمسمائة ألف أفناهم الفقر والغلاء والجلأ ، وكان بها مائتان وأربعون خبازاً فصار بها خبازان ، والأسواق خالية ، والدار التي كانت تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادى عليها بعشرة دنائير فلا يشتريها أحد » .

وتعود دمشق لالتقاط أنفاسها بدءاً من الحكم السلجوقي ، إذ بنيت قلعة دمشق في عهدها الأول في عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م ليتخذ منها حكام دمشق السلاجقة دار أمانة وقصراً حصيناً وزودوها بالأسوار والأبراج والخنادق وشيدوا داخلها الدور والحمامات والمساجد والمدارس ، مما لا يدخل في نطاق حديثنا . وتابعت دمشق مسيرتها العمرانية بعد ذلك زمن الأيوبيين والمماليك والعثمانيين . مما سيكون موضع حديث علماء أفاضل .

ولست أدعي لهذا الذي قلت فضل الجدة أو الريادة أو الاحاطة ، فهو معروف مكرور من جهة ويقتصر عن الواقع بكثير ، ولكنني حاولت التذكير ببعض ما تعرفون ، وأرجو أن أكون قد وفقت .

★ ★ ★